الإمام علي باني أُسس التعايش

المهندس فؤاد الصادق

التعايش.....

هذا الاصطلاح القديم الجديد... السهل الصعب: الذي يشمل:

تعايش الانسان مع ذاته هو

تعايش الفرد مع الفرد الآخر في الجماعة الواحدة

تعايش الفرد مع الفرد الآخر من غير أفراد جماعته

تعايش الجماعة مع الفرد العضو في نفس الجماعة

تعايش الجماعة مع الفرد من الجماعات الأخرى

التعايش بين الجماعات الأفقية في المجتمع الواحد كالمؤسسات الانسانية و النقابات، وأكثر مؤسسات المجتمع المدني

التعايش بين الجماعات العمودية في المجتمع الواحد كالأديان، والمذاهب والطوائف والقوميات

التعايش بين الأكثرية والأقلية

التعايش بين الأغلبية من جهة، والأقلية، أو الأقليات من جهة اخرى

التعايش بين المجتمعات المختلفة

التعايش بين الشعوب المختلفة

التعايش بين الأمم المختلفة

التعايش بين الحضارات المختلفة

التعايش بين الدول المختلفة

التعايش مع البيئة الطبيعية

التعايش مع البيئة الاجتماعية الداخلية ككتلة واحدة

والتعايش.........

فالحاجة إلى التعايش موجودة أينما وجدت علاقة بين طرفين، وهي مسؤولية مشتركة يتحملها الطرفان غالباً.

أجلْ هذا الاصطلاح قديم قدم الانسان. فقصة قابيل وهابيل معروفة، لكنه جديد في الوقت نفسه لتداعيات سلبيات العولمة، والضرورات العالمية لإصلاح ثغرات العولمة، وإصلاح ما يسوق من صراع المصالح باسم الدين تارة، وباسم صراع الحضارات تارة أخرى.

فالحاجة إلى إرساء ودعم وتشريب مفاهيم التعايش حاجة ماسة وضرورية، ولاسيما مع تحول العالم إلى قرية صغيرة.

أما وصفنا للتعايش بالسهل الصعب، فيعود إلى سهولة التنظير والدعوة اليه، وصعوبة ممارسته ونشره وتكريسه، لا للصعوبة المألوفة في الانتقال من النظرية إلى الممارسة فحسب، بل لجملة من التعقيدات والتداخلات والأسس التي يجب ضمانها مستدامة لزرع التعايش وتأصيله وتكريسه على مختلف الأصعدة والمستويات والمجالات المتقدمة.

إضافة إلى أن التعايش من صنف الأزهار بطيئة النمو، سريعة الزوال.

وعملية التعايش تبدأ من نظرة الانسان إلى نفسه وتقييمها، ومدى نجاحه في إقرار حالة التعايش الداخلي مع ذاته، فالذي ينظر إلى نفسه نظرة إيجابية مطلقة أو سلبية مطلقة، بينما يقيّم الآخر بأنه سلبي أو إيجابي بصورة مطلقة، لايمكنه أن يتعايش مع الآخر، وكذلك المتعثر في التعايش مع ذاته في محاكاته وحواراته مع الذات للخروج بتوازن بين الارادات الداخلية المتباينة كالعقل والعاطفة والضمير والنفس وما إلى ذلك، فيكون ذا شخصية بعيدة عن التوازن والاعتدال والوسطية، وهذا مما يبعد الإنسان عن التعايش، فالتعايش يبدأ من دائرة الذات ويمتد ليؤثر، ويتأثر بجميع دوائر التعايش المذكورة في المقدمة.

فيما تقدم مفردات لابد من التوقف عند كل منها بإيجاز:

النظرة إلى الذات.. النظرة إلى الآخر

لإصلاح النظرة إلى الذات، وبالتالي إلى الاخر يقول سبحانه وتعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) سورة النساء الآية: ١.

فالكل مخلوق من نفس واحدة، أي وحدة في الأصل الانساني، والناس أبناء أسرة وعائلة انسانية واحدة، والله عز وجل هو الذي كرّم الانسان دون تمييز، كما في قوله:(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا) سورة الإسراء الآية: ٧٠.

وما هذا الاختلاف في اللغات والألوان؟

يقول سبحانه في محكم كتابه: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) سورة الروم الآية: ٢٢.

فالأصل الانساني واحد، والجميع مكرمون، والاختلاف والتنوّع والتعدّد في اللغات والألوان من آياته ومعجزاته للعالم.

إذا كانت التعددية من آياته سبحانه وتعالى، وهي الأصل في الحياة ؛ فما هو الطريق للتعامل بين مكونات التعددية ؟

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) سورة الحجرات: الآية: ١٣.

بعد التأكيد مرة أخرى على التعددية يحدد الله عز وجل معيار التفاضل بالتقوى التي هو عليم وخبير بها، ويشير إلى مقدمة من مقدمات التعايش، وهو التعارف بين مكونات نسيج الأسرة العالمية الواحدة:

هلْ التعارف يجلب العداوة والصراع ! ؟

التعارف عادة يمهّد للتفهم، والتقارب فالتفاهم والتعاون والتعايش، والآثار الخطيرة للمعرفة الخاطئة أو الناقصة عن الآخر، باتت معروفة، ولذلك يؤكد المصلحون ضرورة تجاوزها، ومعالجتها لدعم التعايش، لدفعه نحو التعاون، كما في قوله تعالى:(وتعانوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان).وفي الحديث الشريف عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله:(خير الناس من ينفع الناس).

نعم التعددية هي الأصل، وهي آية، واختبار، وتنافس، واستباق الخيرات في وقت واحد:(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم فينبئكم فيما كنتم فيه تختلفون)

فلا للتجانس القهري بضميمة قوله: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي...) و(فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر..).

ونعم للتعددية، فالاختلاف والتمايز سيكون دائماً موجوداً، لكن بالإمكان تحويله إلى أداة ايجابية تنافسية فعّالة تغني الأطراف المختلفة المتمايزة، لتجييره في تخديم الأسرة البشرية الواحدة، وهذا ما يأمر به الاسلام كما في النصوص المتقدمة وغيرها، والوسائل عديدة ومتنوعة، منها ماتقدّم؛ مثل تأصيل:

١. وحدة الأصل الانساني.

٢. تكريم الانسان بما هو إنسان.

٣. حرية الإنسان.

٤. التعددية.

٥. حظر التجانس القهري.

٦. متطلبات التعايش الأخرى بين الأطراف المختلفة.

وبعبارة أخرى فالإسلام يصحّح النظرة إلى الذات أولاً، وإلى الآخر ثانياً، وإلى التعددية ثالثاً، ويزرع متطلّبات التعايش رابعاً، فيعالج التحجيم والتضخيم سواءً في النظرة إلى الذات أو إلى الأخر، بتأصيل وحدة الأصل الانساني، وتكريم الإنسان بما هو إنسان إلى جانب نفيه للغرور والتعصب وما شابه ذلك من معوّقات للاتصال والتعارف، كما يؤصّل الحرية للإنسان، ويرفض التجانس القهري، مما يصحّح النظرة إلى التعددية، لضمان التعامل الإيجابي البنّاء معها، وبكل صراحة وصدق وثقة، وبعيداً عن المراوغة أو النفاق أو الاضطرار وما نحو ذلك، فعند التدبّر في الآيات الكريمة التالية إلى جانب ماتقدّم يبدو ذلك جلياً:

(وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين)

(إن الدين عند اللّه الإسلام)

(لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي...)

(لكم دينكم ولي دين)

(لا أعبد ما تعبدون)

(فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر..)

أليس ذلك قمة التسامح المنشود لدعم وترسيخ التعايش؟

فالتسامح في معناه الاصطلاحي الحديث يدل على قبول اختلاف الآخرين – سواء في الدين أم العرق أم السياسة – أو عدم منع الآخرين من أن يكونوا آخرين أو إكراههم على التخلّي عن آخرتهم.

بل أكثر من ذلك، فهو يطبّق ما يسمّونه مؤخّراً بأرقى أنواع التسامح والذي يدعو إلى تجاوز الموقف الذي يقتصر على التسامح بمعنى قبول اختلاف الآخرين، والتقدّم إلى موقف التقدير المناسب لخصائص الآخر واحترام "آخرتهم."

فالاسلام لم يحترم آخرية الآخرين فحسب، بل يسمح للآخر بتطبيق قوانينه في بيئته وضمن المجتمع أو النظام الاسلامي وقاعدتي الالزام والإمضاء في الفقه الاسلامي خير دليل على ذلك، وفي الأحلاف والاتفاقيات التي عقدها وطبّقها الرسول الأكرم على الصعيدين الخارجي والداخلي ما هو أكبر وأرقى من أرقى أنواع التسامح المطروحة هذه الأيام مع بداية الألفية الثالثة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالإسلام يكرّس كل متطلبات ودعائم التعايش وما ينعشه ويضمنه بصورة مستدامة مثل: القسط، العدل، الإنصاف، العفو، الصفح، إحقاق الحق، نفي الظلم، حسن الظن وما إلى ذلك؛ قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ

بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) سورة المائدة الآية: ٨.

هذه بعض النصوص التي تشير إلى منطلقات وركائز نظرية التعايش في الاسلام، وقد زرعاها ورعاها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أيما رعاية، رعاية كاملة وعظيمة للغاية. فالعلامة الفرنسي جوستاف لوبون يقول: (رأينا من آي القرآن التي ذكرناها آنفًا أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة للغاية).

ويضيف روبرتسن في كتابه (تاريخ شارلكن):(إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى) كما في: كتاب (حضارة العرب) لجوستاف لوبون - الصفحة ١٢٨.

أما عن أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب سلام الله عليه والتعايش فنستعرض بعض اللقطات:

- يقول سلام الله عليه في عهده لمالك الأشتر لما ولاّه مصر:

(.. وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبّة لهم واللطف بهم، ولا تكونّن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزّلل وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه).

وكأنه لضمان التعايش بين الراعي والرعية لا يكتفي بمجرد رعاية الوالي للرحمة والمحبة واللطف في التعامل مع الرعية وبجميع مكوناتها المختلفة، اذن: ما هو المطلوب؟ وماهو البديل؟

المطلوب هو الانطلاق من الذات، ومن المركز الإستراتيجي للذات، الانطلاق من القلب، لتبدأ بزراعة الحب والرحمة واللطف، حتى يتحول ذلك الحب الذي يسع جميع مكونات النسيج الاجتماعي إلى ملكة، فتحب الرعية بتعدديتها حبّاً متواصلاً ونابعاً من القلب.

وهلْ هناك مايضمن التعايش و التسامح أكثر من الحبّ الواقعي الصادق النابع من القلب؟

إنه الحديث الرائع عن خلق مقوّمات التعايش المستدام، طبعاً في النصّ المتقدّم أيضاً إشارة إلى اصالة التعددية، وواقعية، وعدالة وعقلانية التعامل معها، إضافة إلى معالجة وتصحيح النظرة إلى كل من الذات والآخر، بتأكيد وحدة الأصل الانساني في قوله: فإنهم - أي الناس - صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق.

• هل الحبّ والتلطف والكلام المعسول وحده يكفل التعايش ؟

يشير عليه السلام إلى عدم جدوى كل ما تقدّم ما لم يعزّز بتكريس حقوق الرعية، وتحاشي الإضرار بها، و بمكوّناتها المختلفة بقوله: ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً - أي تضرهم - تغتنم أكلهم - أي تهضم حقوقهم.

ثم يؤصّل عليه السلام العفو والصفح لخلق الأرضية الخصبة للتسامح والتعايش بقوله: يفرط - أي يسبق - منهم - أي من الناس - الزّلل - وتعرض لهم العلل - أي علة الأعمال السيئة، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ - وهذا طبيعة الإنسان -، فأعطهم من عفوك وصفحك...و لاتندمن على عفو - إذ العفو أحسن عاقبة من الانتقام - ولاتبجحن بعقوبة - أي لا تفرحن بسبب ما عاقبت به أحداً، فإن العقوبة شرّ عاقبة مهما كانت حقاً.

• وماهي حدود العفو والصفح المطلوب؟

يقول - عليه السلام -: فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه.

يا ترى ماهي حدود العفو والصفح الذي نطمع أن يمنحنا الله إيّاها ؟هلْ ثمة حدود ؟

ويقول عليه السلام في خطبة أخرى بما يرتبط بمقوّمات التعايش وتحديداً بما يتعلّق بإنصاف الناس والصبر على حوائجهم ودون تمييز:(أنصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم فإنكم خزّان الرعية ووكلاء الأمّة.... ولاتضربنّ أحداً سوطاً لمكان درهم ولا تمسّن مال أحد من الناس مصلّ ولا معاهد) والمعاهد هو غير المسلم من أهل الكتاب.

وعن دور العدل المستدام في إرساء أسس التعايش، فالإمام - عليه السلام – يقول بأن استقامة العدل لا يحول دون اعتداء البعض الآخر، بل تعمل على حبّ وودّ الرعية للراعي، وهو أكثر تقدماً من التعايش:

(وإن أفضل قرّة عين الولاة - الموجب لفرح واطمئنان الولاة - استقامة العدل في البلاد- فيأمن كلّ إنسان للعدالة المطبّقة فلا يتعدّى بعض الرعية على الآخر فينتعش التعايش - وظهور مودّة الرعية - أي حبّهم للدولة -، وإنهم لا تظهر مودّتهم إلا بسلامة صدورهم - بسبب تكريس العدل..)

فالإمام عليه السلام لم يكتف بمجرّد إرساء أسس التعايش، بل يدعو للتعامل والتعاطي على أساس الحبّ الصادق الذي يستند إلى العدالة.

• أما عن المواطنة الكاملة ولجميع الشرائح فورد عن أمير المؤمنين(ع):

مرّ به شيخ كبير مكفوف البصر يسأل الناس الصدقة فقال أمير المؤمنين(ع):

ما هذا؟

قالوا: نصراني.

فقال(ع): استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه؟ أنفقوا عليه من بيت المال.

فالمواطنة كاملة وللجميع، دون تمييز، والضمان الاجتماعي ومن بيت المال عام يشمل الكل، فالحاجة لابدّ وأن تسدّ مع حفظ الكرامة الانسانية.

أليس التمييز عدوّاً للتعايش ؟

ألا يكون التعايش - إنْ وجد - هشّاً مع الحاجة والفقر والخوف من المستقبل وإهدار الكرامة الإنسانية لسدّ العوز ؟

فالإمام - عليه السلام _ يوصي مالك بالضمان في قوله:...الله الله - يا مالك - في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم - أي لاسبيل لهم لإدارة أمورهم - من المساكين - المسكين هوالذي أسكنه الفقر من الحركة - ، والمحتاجين - المحتاج هو صاحب الحاجة - ، وأهل البؤسى - أي شديدي الفقر - والزمنى - أي ذوي الأمراض والعاهات التي تمنع عن العمل -، فإن في هذه الطبقة قانعاً - أي سائلاً - ومعترّاً - أي متعرّضاً للعطاء بلا سؤال - واحفظ لله ما استحفظك من حقّه فيهم ، واجعل لهم قسماً من بيت مالك ،وقسماً من غلاّت صوافي الإسلام في كلّ بلد، فإنّ للأقصى منهم مثل الذي للأدنى - أي دون تمييز في ذلك الضمان بين المركز والمحيط أو بين العاصمة والمحافظات أو بين المدينة والأرياف - ،فلا يشغلنك عنهم بطر - أي طغيان الملك والنعمة - ، فإنك لا تعذر - أي لا يقبل الله ولا الناس عذرك -.

في الاقتصاد والتنمية والتعايش:

يوصي عليه السلام: (ثم اسبغ - أي أوسع - عليهم الأرزاق - بإعطائهم مقدار حاجاتهم في رفاه - فإن ذلك - الإسباغ - قوّة لهم على استصلاح أنفسهم - فمنْ صلح حاله لايفكّر إلا في عمله -، وغنىً لهم عن تناول ما تحت أيديهم - فلا يظلمون الناس بأخذ أموالهم، ولا المال العام -، وحجّة عليهم - أي سحباً للذرائع - إنْ خالفوا أمرك ، أو ثلموا - أي خانوا - أمانتك.)

فالرفاه المتناسب مع الحاجة يساعد على إصلاح الفرد لحاله وذاته وتفعيل أدائه، ويحول دون ظلم الآخر وتفشّي الأحقاد.

وهل يمكن إهمال دور الرفاه في إحياء التعايش وإنعاشه ؟

ويضيف سلام الله عليه في هذا الاتجاه مايزيد الصورة وضوحاً:(... وإنما يوتى خراب الأرض من إعواز أهلها...)

ولذلك يؤكّد - عليه السلام - أهمية التنمية مشدّداً على التنمية ورفع الإنتاج لدعم الميزانية العامة محذّراً من اللجوء إلى الضرائب المشروعة مشيراً إلى أخطار ذلك على البلاد والعباد بقوله:(.. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج،لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أضر بالبلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً ... فإن العمران محتمل ما حملته...)

فالرفاه ينعش التعايش، ولضمانها لابدّ من تنمية مستدامة، والحاجة والعوز تقودان إلى الخراب، والتعويل على الضرائب دون رفع الإنتاج والأرباح يضرّ بالبلاد ويهلك العباد، وكيف لا تكون النتائج كذلك ؟

فحين تتوقّف التنمية، تتدنّى وتنعدم الأرباح، وتهبط فرص العمل، وترتفع البطالة، لكن دفع الضرائب المجازة متواصل، فيستمر الفقر والإفقار والبطالة، فيبدأ التذمّر بالنمو، فتختلّ التوزانات والعلاقات لتختفي فرص التعايش بين الرعية نفسها من جهة، وبين الحاكم والمحكوم.

هذه بعض الفقرات من وصية امير المؤمنين - عليه السلام- لمالك الأشتر، والتي باتت معروفة عالمياً بالدستور العلوي، وقد أجاد حقاً المفكّر المسيحي جورج جرداق في تعليقه على هذا الدستور بقوله:((فليس من أساس بوثيقة حقوق الإنسان التي نشرتها هيئة الأمم المتحدة إلا وتجد له مثيلاً في دستور ابن أبي طالب ثم تجد في دستوره ما يعلو ويزيد...))

أما الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان فقال قبل ثلاث سنوات:((قول علي ابن أبي طالب:يا مالك إن الناس إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق..، هذه العبارة يجب أن تعلَّق على كلّ المنظمات، وهي عبارة يجب أن تنشدها البشرية)).

وبعد أشهر اقترح عنان أن تكون هناك مداولة قانونية حول كتاب الإمام علي إلى مالك الأشتر. اللجنة القانونية في الأمم المتحدة، بعد مدارسات طويلة، طرحت هل هذا يرشح للتصويت ؟ وقد مرّت عليه مراحل ثم رُشِّح للتصويت، وصوتت عليه الدول بأنه أحد مصادر التشريع الدولي.

هذه فقرة من وثيقة واحدة من وثائق الإمام علي بن أبي طالب تحفة الرسول الأكرم عليهما الصلاة والسلام لأمته، وللأسرة البشرية.

ثلاث لقطات

لنذكر ثلاث لقطات ترتبط بالتعايش خارج هذه الوصية، مما هو أكثر خصوصية،ويسلط الضوء على الممارسة والتطبيق في حياته عليه السلام:

• الإمام (عليه السلام) يمشي مع النصراني إلى قاضيه، ليتحاكم كأحد الرعيه، وقاضيه يقضي عليه غير مصيب، فلا يرفض عليه السلام الحكم!

روى ابن الأثير في التاريخ (الكامل) أن علياً (عليه السلام) وجد درعاً عند نصراني فأقبل إلى شريح قاضيه وجلس إلى جانبه يخاصم النصراني مخاصمة رجل من رعاياه، وقال: إن هذه درعي لم أبع ولم أهب، فقال للنصراني: ما يقول أمير المؤمنين؟ فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي إلا بكاذب، فالتفت شريح إلى علي (عليه السلام) فقال: يا أمير المؤمنين هل من بيّنة؟ قال: لا، فقضى شريح بها للنصراني، فمشى هنيئة ثم أقبل فقال: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام النبيين، أمير المؤمنين يمشي بي إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه! أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين.كما في كتاب: بحار الأنوار ج ٩٧ - ص ٢٩١.

هذه القصة رويت أيضاً بشكل آخر، في الكتب الفقهية في باب القضاء.

هلْ رأى الشرق و الغرب نموذجاً كهذا ؟

إنها قمّة الخضوع لسيادة القانون، لاستقلال القضاء ولمساواة الجميع أمام القضاء دون تمييز بسبب الدين أو الموقع أو المسؤولية أو....

وهلْ للتعايش طريق غير النمو والتجذّر والتأصّل في كنف ممارسات كهذه ؟

يجيب شبلي شميلو على السؤال المتقدم قائلاً:

إن علي بن أبي طالب عليه السلام إمام بني الانسان ومقتداهم،و لم ير الشرق و الغرب نموذجاً يطابقه أبداً لا في الغابر و لا في الحاضر. كتاب: الإمام علي صوت العدالة الانسانية،ج ١ - ص.٧.

• الإمام علي - عليه السلام - قائد الدولة يعدل عن طريقه ليشايع صاحبه الذمّي:

ورد عن الإمام جعفر الصادق حكاية عن جده أمير المؤمنين عليهما السلام: حيث صاحب ذمياً في الطريق فقال له الذمّي: أين تريد يا عبدالله؟

قال «ع»: أُريد الكوفة، فلما عدل عن الطريق، الذمّي، عدل معه أمير المؤمنين«ع».... فقال له الذمّي: لم عدلت معي؟

فقال أمير المؤمنين(ع): هذا من تمام الصحبة أن يشيّع الرجل صاحبه هنيئة إذا فارقه وكذلك أمر نبينا، وفيه أن الذمّي أسلم بذلك. كما في كتاب: العلاقات الاجتماعية ص: ٣٢٣

• كيف يصف الإمام علي - عليه السلام - منْ رفع السلاح ومارس الإرهاب:

يقول الإمام محمد الباقرعليه السلام أن جده علياً عليه السلام لم يكن ينسب أحداً من أهل حربه إلى الشرك ولا إلى النفاق ولكنه كان يقول: (هم أخواننا بغوا علينا)كما في كتاب: وسائل الشيعة ج١١- ص ٦٢.

أجلْ لمْ يجتهد أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في نشر ثقافة التعايش فحسب، بلْ ساهم في انشاء وبناء وصناعة وعي فردي وجمعي من أجل تعايش إيجابي مستدام ومسؤول، فكان في سلوكه الرسمي وغير الرسمي والفردي والاجتماعي وفي كلّ الظروف والأحوال آية وقدوة للتعايش ودعائمها، لينقل التعايش بمقوّماته من الرصيد المعلوماتي للبشرية إلى الرصيد المعرفي كي يترجم التعايش في السلوك والقرار.

فأين نحن اليوم من ثقافة التعايش مع هذا الرصيد الهائل ؟

لماذا نسقط المطلقية على الدين ؟ في الوقت الذي لايسمح الدين بالمطلقية حتى في أهم الأمور العقائدية، وأعني تحديداً:

الإيمان، فالتعددية هي الأصل حتى في الإيمان.

كـيـفْ ! ؟

ورد عن عبد العزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبد اللّه الصادق عليه السلام: ((يا عبد العزيز إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السلم، يصعد منه مرقاة بعد مرقاة، فلا يقولن صاحب الاثنين لصاحب الواحد: لست على شيء.. حتى ينتهي إلى العاشرة، فلا تسقط من هو دونك، فيسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق، ولا تحملن عليه ما لا يطيق فتكسره، فإن من كسر مؤمناً فعليه جبره)).كما في كتاب: بحار الانوار ج - ٦٦- ص- ١٦٥.

فمنطق حصر الألوان في الأسود والأبيض مرفوض حتى فيما يرتبط بالإيمان،كما هو الإقصاء والتسقيط كذلك، حتى لو برز بعباءة الإيمان، فللتسقيط بداية بلا نهاية، ومنْ أسقَط سيُسقَط بعد حين.

وختاماً:

لقد عمل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لتكريس التعايش بزرع مقوماتها مفهوماً وممارسة كالتعددية والتسامح واللاعنف والعدالة كما تقدم، فالمفاهيم هذه بلا عدالة، تبقى مفاهيم نظرية، عصية على التطبيق، ولا تتعدى عن كونها معلومة من المعلومات، وحلماً من الأحلام، لذلك نرى الإمام عليه السلام نذر نفسه الطاهرة لتكريس وتأصيل مقومات التعايش، وعلى رأس تلك المقومات العدالة، في كل خطوة، وفي جميع الاحوال والمراحل، فحوّل التعايش إلى أصل معرفي، فعبر به من دائرة الفكر، إلى دائرة القرار، ومن غربة النظرية إلى واحة الممارسة، فأمست بعدالته قادرة وفاعلة على رفد التعايش بسرّ الحياة والخلود حتى أستشهد لعدالته كما يقول الكاتب المسيحي جبران خليل جبران:(قتل علي في محراب عبادته لشدّة عدله).

إن اليونسكو قد تنبّهت لأهمية التعايش، ومنذ عشر سنوات فاعتبرت شعار «تعلّم للعيش مع الآخرين» أحد الأعمدة الأربعة المطلوبة في أي نظام تربوي إلى جانب الأعمدة الثلاثة الأخرى: «تعلّم لتعرف»، «تعلّم لتعمل»، «تعلّم لتكون»، فإني أتمنى ومن مؤتمركم المبارك هذا، وفي هذه الأمسية المباركة التقدّم إلى اليونسكو بأقتراح لجعل شعار: « تعلّم العدالة لتسعد بانتعاش التعايش» أحد الأعمدة المطلوبة في أي نظام تربوي،واعتباركتاب نهج البلاغة مصدراً من مصادر النظام التربوي الدولي. والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته، وكلّ عام وأنتم بكل خير.